ما قدرنا الزمن حق قدره

بقلم أ. عبد الرحيم صادقي

توطئة المقال

لا رجوع إلى الماضي إلا بقدر ما يكون هذا الرجوع مُعيناً على فهم الحاضر. ولا تشوُّفَ للمستقبل إلا بقدر ما يكون هذا التشوف مساعداً على إحكام الخطوات، وضبط المنهج، وشحذ الهِمم وتقوية العزائم. تِلكُم هي علاقة المسلم بالزمن. وليس بعد هذا وذاك إلا الحنين والأماني. حنينٌ إلى ماضٍ مجيد صنعته عزَماتُ البشر، وتَمَنٍّ لمستقبل زاهر بلا عمل.

وبالمثال يتضحُ المقال، فرُبَّ سلوك نأتيه يوصف بأنه حكمة وروِيَّة، وحقيقته تردُّد وعجزٌ عن اتخاذ قرار ما. وكم من مبادرة وتلقائية عند غيْرنا نحسَبُها تهوُّراً واندفاعاً غير مدروس. ورُبَّ بطء وتكاسل في أعمالنا مُبرِّرُه التدرج والتحرُّز من حرق المراحل. فينتقِضُ القسط ويضيعُ الحق، فلا وسط بين بطء وعجلة. وقد يكون مبرر ذلك مراعاة مرحلة البناء والتكوين، فنحمِّلُ المرحلة تقاعُسنا عن أداء واجباتنا وتكاسُلَنا وعجزنا وفراغنا وتثاقلنا إلى الأرض. وكل ذلك خسارة زمنية وتأخير للنصر المنشود. والحق أن المرحلة لا تكون مرحلة بناء وتكوين إلا إذا كان هناك عملٌ دؤوب لا يفتُر، دون أن يعني ذلك خُلُوَّ العمل من الأخطاء، ولكن الأخطاء تستوجبُ التصحيح. ولا ضيْرَ حينئذ، إذ التصحيحُ ذاته عملٌ.

صور زمنية متخلفة

لعله من أجلى صور التخلف الناطقة في عالمنا العربي والإسلامي عدمُ إدراكنا لأهمية الوقت. حيث يُجعَلُ على هامش معادلة التقدم والتأخر، وكم بالحريِّ أن يكون في صُلبها.

صحيح أن المنهج السليم يقتضي معرفة الظاهرة المرضية قبل الخوض في أساليب العلاج، غير أن المكوث الطويل للتساؤل لا يشفي عليلاً ولا يروي غليلاً. ولئن جاز لمفكرينا في بداية القرن العشرين، وقد شعروا بالبون الشاسع بين عالمنا العربي والإسلامي وأوربا، وبالفوارق التي تزداد بين العالَمين يوما بعد يوم، حيث ينمو الجهل عندنا في الوقت الذي يزدهرُ العلم عندهم، لئن جاز لهؤلاء المفكرين –وقد أحسوا بمرارة الواقع– أن يقفوا وقفة مصدوم مشدوه،

متسائلين عن سبب الأزمة: "لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟"[*]، فكيف يجوز لمفكرينا وقد مرَّ قرن بأكمله أن يطرحوا الأسئلة نفسها وأن يقفوا الوقفة ذاتها؟ أليس من العجب أن نُمضي قرنا أو يزيد في تأمل الظاهرة وطرح سؤال النهضة؟! والغريب كل الغرابة أن نرى من بين مفكرينا الآن من يعود لمناقشة أفكار عُدَّت عند أسلافهم من البداهات. فتراهُ يقذف إلى السطح بقضايا لا مسوغ لها إلا الافتتان بالجدل وقلة العمل. فأنت تجده يناقش قضية المرأة كما ناقشها "قاسم أمين" منذ ما يقارب القرن من الزمن بتفاصيلها وعناوينها الصغرى والكبرى، وكأن الزمن لم يتحرك وكأن التاريخ توقف. وتزداد الصورة تخلفا إذا ما قُرِنت القضية بالإسلام، فنسأل: هل حرر الإسلام المرأة أم استعبدها؟ ما حكم عمل المرأة خارج البيت؟ هل حجاب المرأة شَرع أم عادة؟... وهَلمَّ تخلفا. وقس على ذلك مسألة الحرية والاستبداد في عالمنا العربي. فإذا قُدِّرَ لك أن تطَّلع على ما يُكتب ويقال في المسألة فلا ريب أن الشك مُساوِرُكَ حول الكاتب أو القائل، أهو "الكواكبي" أم هو مفكرٌ من القرن الواحد والعشرين. فالعنوان هو نفسه: "الاستبداد أصل لكل فساد". وربما توهَّمت وأنت تقرأ "الظلم مؤْذن بخراب العمران" أن القائل "ابن خلدون" أو كاتب من قرون خلت، فلا تجده إلا كاتباً معاصراً. فلا اعتبار لأي طوارئ طرأت أو حوادث حدثت أو قضايا استجدت. فالاستبداد هو هو، وأسبابه لم تتغير، والنتائج طبعاً هي نفسها.

فإن لازم المقدمات بحسب المقدمات آت

لا اعتبار إذن لعامل خارجي يحرسُ الاستبداد في عالمنا الإسلامي ويتعهد حمايته وإدامة التبعية والتخلف، لا اعتبار لمصالح قوى عالمية متنافسة على اقتسام خيرات العالم، مُستخدِمة لأجل ذلك كل الوسائل، ما جاز منها وما حُظر، ما خفي منها وما ظهر. وعَبْر مؤسسات دولية ظاهرها الرحمة وباطنها من قِبَله العذاب، تُنفذ الخطط بدقة متناهية، سُرعان ما نلمسُ آثارها في عالمنا، على اقتصادنا وسياستنا، وعلى ثقافتنا وهويتنا، وعلى البلاد والعباد. ولكن "كواكبي" القرن الواحد والعشرين مُصرٌّ على طرح المسألة كما طرحها "كواكبي" القرن العشرين: الأجوبة نفسها للأسئلة نفسها. لا الزمان تغير ولا المكان تبدل. في وقت غيَّرت فيه العولمة وثورة الاتصالات مفهوم الزمان والمكان، بل ومفاهيم الوطن والسيادة والسدود والحدود، ومفاهيم شتى...

ولكنه لا ضير في عرف زمن التخلف أن نُمضي قرنا من الزمن أو أكثر في التساؤل والنقاش والجدل والمعاينة، بدعاوى تتعدد وتتلون: التأني، عدم الاستعجال، عدم حرق المراحل، التدرج، مراعاة مرحلة البناء والتكوين، إلخ... ويعلمُ الله كم يلزمنا من الوقت لكي نَلِجَ طور الأجوبة والحلول.

---

[*]– **عنوان مُؤلَّف لشكيب أرسلان.**

صور زمنية متألقة

إن الناظر في سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام لَيقفُ على حقيقة جليَّة مفادُها أن هذا الرسول الأكرم كان يبلغ رسالة ربه عز وجل، وهو مُدركٌ تمام الإدراك قيمة الزمن. على خلاف ما يتَوَهَّمُه الواهمون حين يتعلَّلون بكون الإنسان مأمور بإتيان الأسباب وترك الباقي على الباري. فيكون حقا أريد به باطل متى ما كانت الأسباب بلا تخطيط ولا نظر. وأيُّ تخطيط هذا الذي لا يراعي الزمن ولا يأبه لوقت؟!

لم يكن عليه الصلاة والسلام لِيُقدم ما حقه التأخير[1]، ولا أن يؤخر ما حقه التقديم[2]، ولم يكن ليتباطأ وهو مدعو إلى النفير[3]، ولا أن يستعجل وهو مأمور بالتأني[4]. فكانت دعوته عليه الصلاة والسلام دعوة تستحضر الزمن، وتستغله أحسن استغلال، ولقد كان شعاره صلى الله عليه وسلم: "لا راحة بعد اليوم". وهذا ما يفسر سرعة انتشار الإسلام وظهوره على الدين كله في زمن قياسي. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه رضوان الله عليهم ثم يعزِمُ الأمر. فلا تراخي ولا تثاقل. فعندما أشير عليه في غزوة الأحزاب، بحفر الخندق مضى إلى العمل فوراً. ولو أنه تباطأ –ولم يكن ليفعل– لربما وقع ما لم يكن في الحسبان. ولما بلغه أن المشركين يجتمعون في "حمراء الأسد" يريدون استئصال شأفة المسلمين أسرعَ إليهم ولم تندَمِل جِراح أُحُد بعد، وهو الذي حَثَّ الخطى لمباغتة الروم في غزوة تبوك، حين عَلِم أنهم قد جمعوا جموعا كثيرة بالشام. فهو عليه الصلاة والسلام دائمُ اليقظة، سبَّاق إلى الخيرات، عجِلٌ إلى مرضاة ربه. سريع الحركة يسابقُ الزمن، فتراهُ يجيِّشُ الجيوش ويبعث الرسل، ويؤم الناس في الصلاة ويُعلِّم الشعائر ويبين أمر الدين، وينصحُ لأمته ويتفقد أحوال الرعية، ويقوم بشؤون بيته ويرعى حقوق أزواجه... فهل كان الزمن يُسعفه ليقوم بهذا كله لو أنه كان لا يقدر الزمن حق قدره!

ولا يقولَنَّ قائل إنه عليه الصلاة والسلام لم يتعجَّل القتال، وإنما صبر على الأذى وتحمَّل، فأمرُ الله في ذلك واضح، فقد كان صلى الله عليه وسلم يقول: "لم نُأمر بعد". أما حين شُرع القتال بعد أن توفرت شروطه، فقد مضى عليه الصلاة والسلام رأساً إلى إعداد القوة واستجماع شروط النصر. فمدارُ الكلام هنا عن سرعة التنفيذ حين يَبينُ الأمر. فإذا بان فالعَجل العَجل!

---

[1]– [**أعجلتُم أمر ربكم**]، الآية ١٥٠، الأعراف.

[2]– [**سارعوا إلى مغفرة من ربكم**...]، الآية ١٣٣، آل عمران. [**ويسارعون في الخيرات**...]، الآية ١١٤، آل عمران. [**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض**...]، الآية ٢٠، الحديد.

[3]– [**انفروا خفافا وثقالا**...]، الآية ٤١، التوبة. [**ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض**]، الآية ٣٨، التوبة.

[4]– [**لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه**]، الآية ١٦، القيامة.

أما نحن في تنظيماتنا ومؤسساتنا، فأعمالُنا كلها على التراخي، لاسيما إذا كان العمل تطوعا. فقد يستغرق اكتشاف خلل ما في عمل مؤسسي سنوات، فنحتاج لمعرفة أسباب الخلل إلى سنوات أُخر، فإذا تعرفنا على الأسباب احتجنا إلى سنوات طوال للبحث عن الحل، حتى إذا ما وُفِّقنا إليه لم نمضِ إلى التنفيذ إلا بعد ردحٍ من الزمن. ولا غروَ أن نكتشف حينئذ أن المشكل الأصلي قد تفرعت عنه مشاكل، وأن الحل المقترح قد تقادم وأن الزمان غير الزمان، والظروف غير الظروف.

حصيلة المقال

لئن كان من المسلَّم به أن البناء السليم لا يقوم إلا بركائز سليمة، فمِن التفكير السليم والتخطيط المطلوب أيضا أن تتم عملية البناء وفق جدول زمني محدد ومراحل مضبوطة، فإن للزمن كُلفته واعتباره، ولكل مرحلة أسئلتها وبالتالي أجوبتها. ولكل محطة أساليبها، ولكل مقام مقال.

إننا في أمسِّ الحاجة، في عالمنا العربي والإسلامي، إلى عقل عملي يصاحب عقلنا النظري، وإلى عزم وتنفيذ بعد تدبر وتفكر. فإذا كان العقل والحكمة يقتضيان دراسة ظاهرة مرضية ما ابتغاء الوقوف على أسبابها، فإن ذلك يغدو بلا نفع ولا جدوى إذا لم نُسرع في تقديم الحلول متى وضحت الأسباب. فالمسألة لا تنحصر في مجرد إدراك أسباب الأزمة وتسطير لحلول دون أي اعتبار للزمن. فإن الطبيب إذا شخَّص المرض وصف الدواء حيناً، وقدَّر مدة الاستشفاء. ولو أنه تأخر في وصف الدواء بعد تشخيص المرض أوْشَكَ المريض أن يُسلِم الروح بين يديه. فكل تأخر أو تباطُؤ في الأخذ بأسباب التقدم الرقي في مؤسساتنا وتنظيماتنا وأقطارنا لن يكون حتماً في صالح عالمنا المتخلف، الذي ما إن يتقدم خطوة حتى يكون المتقدم قد قفز خطوات، وما إن يصعد ذاك درجة حتى يكون هذا قد ارتقى درجات، وابتكر من أساليب المكر وحراسة التخلف في عالمنا ما ليس للمتخلف عهدٌ به، ووضع من المعوقات ما لا قِبَل له به ولا طاقة. فمتى نُدرك قيمة الزمن؟!